

التفوق على الدول المعاصرة:

بفضل الجيش المنظم والأسطول القوي كان لخلفاء هذه الفترة النصر الحاسم في كل صراع مع من عاصروهم من ملوك وأمراء. وكان صراعهم مع دول إسبانيا المسيحية وصقلية مباشراً، بينما لم تسنح لهم فرصة للنزاع المباشر مع الأيوبيين.

في الأندلس أوقفوا زحف الممالك المسيحية. وتجلت قدرتهم في انتصارهم العظيم في موقعه الأرك سنة 591 / 1195⁽¹⁾. وتفوق الموحدين في عصر الازدهار هذا دفع بعض أمراء المسيحيين إلى أن يتحالفوا معهم ويحاربوا في صفهم⁽²⁾، ومن ظل على عدائه كان يغتنم انشغال الخلافة بأحداثها الداخلية - وكانت كثيراً ما تقع في المغرب أو إفريقية - فيشن حرباً شعواء، ولكن الموحدين كانوا يقفون في وجههم ويجرعونهم من الهزائم كؤوساً، فيضطرون لطلب السلم والمهادنة⁽³⁾. وبالنتيجة استرد الموحدون مدناً وحصوناً كان المسيحيون قد استولوا عليها من قبل مثل باجة، وشلب، وبابرة وقلعة رباح، وشلبطرة⁽⁴⁾، وتوغلوا في أراضي المسيحيين غزاة فوصلوا مجريط ووادي الحجارة⁽⁵⁾.

تبين الصقليون تفوق الموحدين عليهم عسكرياً لا سيما في البحر منذ أن أجلوهم عن إفريقية، فسعوا لمصالحتهم، وأبرموا السلم مع يوسف بن عبد المؤمن (576 / 1180)⁽⁶⁾ وظلوا على علاقة طيبة معهم حتى انقرض أمر بني عب

(1) المعجب ص 282، الحلل الموشية ص 133.

(2) رسائل موحدية ص 238، المن بالإمامة ص 368-372، 380-381، 400 البيان المغرب ج 3 ص 80، 85.

(3) راجع رسائل موحدية ص 221-222، 283، المن بالإمامة ص 526-527 المعجب ص 283.

(4) المعجب ص 283، وفيات الأعيان ج 65 ص 8، البيان المغرب ج 3 ص 175، 238.

(5) البيان المغرب ج 3 ص 203.

(6) الكامل ج 11 ص 468، نهاية الأرب ص 220.

ومنذ أن أخضع عبد المؤمن المغرب لسلطانه كان اتجاه توسعه في شعبتين: أندلسية وإفريقية. وسار الفتح فيهما في وقت واحد. ففي عام 547 / 1152 فتح مملكة بني حمّاد الصنهاجيين⁽¹⁾، رغم استنجادهم بالعرب الهلالية من إفريقية⁽²⁾، فقد دخل عبد المؤمن بنجاية عنوة بمساعدة وزير الصنهاجيين أبي محمد ميمون بن علي بن حمدون⁽³⁾. ومنذ عام 551 / 1156 بدأ حكم الصقليين يضعف في إفريقية، وفقدوا سيطرتهم على كثير من المدن، ولم يستطيعوا الحفاظ على المهديّة وزويلة إلا ببذل الأموال للعرب الهلالية⁽⁴⁾. ففتح عبد المؤمن في حملته عام 554 - 555 / 1159 - 1160 تونس والمهديّة وبلاد الجريد وطرابلس⁽⁵⁾، فوضع حداً لسيطرة النورمان وأخضع القبائل العربية الهلالية.

وإذن ففي عصر الخلفاء الأربعة الأول بلغت الدولة الموحدية أقصى اتساعها من طرابلس شرقاً إلى المحيط غرباً، ومن الصحراء الإفريقية جنوباً⁽⁶⁾ إلى جبال الشارات بالأندلس شمالاً. فاحتكت الدولة الموحدية بدول معاصرة كثيرة: دول النصارى في إسبانيا ودولة النورمان في صقلية ودولة الأيوبيين في مصر. وضمت هذه الأرض الشاسعة عناصر متعددة وقبائل متنافرة فكثرت الثورات والفتن.

(1) رسائل موحدية ص 17-22، 26-34، الكامل ج 11 ص 158، روض القرطاس ص 126، غير أن المراكشي يخالف ويجعل كل ذلك عام 540 / 1146 (المعجب ص 206).

(2) رسائل موحدية ص 29-32.

(3) المصدر ذاته ص 20، الحلل الموشية ص 123-124.

(4) الكامل ج 11 ص 203-205.

(5) راجع عن هذه الحملة: رسائل موحدية ص 101-111، المعجب ص 228-230، الكامل ج 11 ص 241-245، البيان المغرب ج 3 ص 39، الحلل الموشية ص 128-129، روض القرطاس ص 129-130، نهاية الأرب ص 210-213.

(6) يقول صاحب كتاب الاستبصار وهو معاصر لفترة الخليفة المنصور أن كلمة التوحيد والهداية في بلاد الصحراء متصلة من طرابلس إلى مدينة غانة وكوكو (الاستبصار ص 111) ويذكر عن منطقة تلمسان أن حذها هو أول الصحراء من مدينة تنزل على الطريق إلى سجلماسة (الاستبصار ص 176).

المؤمن. ولكنهم كانوا إن وجدوا فرصة لإضعافهم لا يفوتونها، فلهذا نجدهم يساعدون الميورقيين لاستعادة جزيرتهم لما فقدوها في سنة 581 / 1185⁽¹⁾.

وكانت علاقات الموحيدين بالأيوبيين متوترة وبصفة خاصة أيام المنصور. ولما دخل الأغزاز المصريون إفريقية، وأثاروا الفتن والثورات بالتعاون مع العرب الهلالية ثم بني غانية، أحفظ ذلك الموحيدين عليهم واعتبروه بتدبير من حكام مصر، والأيوبيون كانوا يعلمون ذلك⁽²⁾، ولا سيما أنهم كانوا يعطفون على بني غانية إن لم نقل قد ساعدوهم⁽³⁾. واتضححت النوايا عندما طلب صلاح الدين الأيوبي مساعدة الموحيدين البحرية فلم يستجب المنصور⁽⁴⁾ بل صرح ببنيته في غزو مصر. غير أن ظروف الدولتين حالت دون الصدام المسلح، فكل منهما كانت مشغولة بحملات خارجية متزايدة.

التصدي للثورات الداخلية:

ذكرنا فيما سبق أن تاريخ المغرب هو تاريخ القبائل، والقبيلة لا تعرف سلطاناً خارج نطاقها، ولا ترقى لفهم مسألة الدولة، وعرف ابن تومرت هذه الحقيقة، فوضع نظام حفظ به وحدة قبائل الموحيدين، وأبقت تلك القبائل على وحدتها طوال عهد ازدهار الدولة، ولما كانت كلها من المصاعدة فنجاحها أغرى مجموعات الأخرى، فانطلقت في ثورات متعددة كما بينا آنفاً. وتكررت

(1) البيان المغرب ج 3 156 - 157.

(2) أنظر خطاب صلاح الدين لرسوله ابن منقذ عند أبي شامة في الروضتين ج 2، ص 171، وقد اختلف فيمن دفع الأغزاز إلى إفريقية فقد قيل صلاح الدين (الرحلة ص 111 - 112، المعبر، ج 6 ص 394، صبح الأعشى، ج 13 ص 87) وقيل تقي الدين ابن أخ صلاح الدين (الروضتين ج 1 ص 260) وبعد بحث المسألة لم نجد سوى طموح الأغزاز أنفسهم دافعاً ولا سيما أن العصر كان موافقاً.

(3) راجع سعد زعلول عبد الحميد «العلاقة بين صلاح الدين الأيوبي وأبي يوسف يعقوب المنصور» مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 1952 - 1953 ص 84 - 100، الصحراوي، جولات في تاريخ المغرب ص 69 - 101.

(4) المعجب ص 284.

ثوراتهم في جبال غمارة وبلاد صنهاجة⁽¹⁾، ومنطقة السوس⁽²⁾ كلما واثت الظروف وقد تمكن الخلفاء الثلاثة الأول من إخمادها.

وساق ثورات القبائل المغربية فتن أشد وأعتى في إفريقية (تونس)، لعب الدور الأساسي فيها العرب الهلالية والأغزاز ثم الميورقيون، وتساعد الخطر لما تحالفوا جميعاً. وعقب كل فتنة إفريقية اضطر الخلفاء للخروج بأنفسهم لإخمادها، وهذا ما فعله يوسف والمنصور ثم الناصر. ولم ينجح أحدهم في القضاء النهائي على أهل الفتنة، ولكنهم حدوا من الخطر، وأبقوا على الأثر. وقد حال دون القضاء المبرم أن الثورات كانت تندلع وجيوش الخلافة في أشد حالات المجابهة مع القوى المسيحية في إسبانيا، هذا بالإضافة لطبيعة المنطقة الصحراوية وبعدها عن العاصمة. وبالرغم من ذلك فقد نجح خلفاء عصر الازدهار في إخماد ثورات المغرب والحد من الخطر والفتن بإفريقية، الأمر الذي لم يتييسر للدولة في فترة انحلالها.

التقدم الاقتصادي:

إن تفوق الموحيدين على أعدائهم في الخارج والناشرين في الداخل، مكنتهم من فرض الأمن، والاستقرار في ربوع دولتهم وفي البحر الذي حولهم. وقد تبين خلفاؤهم الارتباط بين حالة الأمن والوضع الاقتصادي، فشدد عبد المؤمن في أمر قطاع الطرق، ويروي ابن شداد فيما نقله عنه النويري أن عبد المؤمن قتل حفاظ محلة قرب بجاية سرق فيها أمتعة أحد تجار المهديّة⁽³⁾، وتابع يوسف والمنصور هذه السياسة ويقول ابن صاحب الصلاة عن أيام يوسف «يسير الراكب حيث شاء من بلاد العدو في طرقها من جبلها وسهلها آمناً في

(1) المن بالإمامة ص 307 - 321، الكامل ج 11 ص 312 - 313، البيان المغرب ج 3 ص 69 - 72، 110، روض القرطاس ص 153.

(2) المن بالإمامة ص 360، المعجب ص 315 - 316، البيان المغرب ج 3 ص 76 - 77، 215.

(3) نهاية الأرب ص 215 - 216.

نفسه وماله لا يخاف إلا الله أو الذئب»⁽¹⁾، ويذكر صاحب روض القرطاس عن عهد المنصور مثل هذا القول⁽²⁾. ونتيجة للأمن والاستقرار اتسعت الزراعة وراجت التجارة ونهضت الصناعة وكثرت المجابي وبلغت الدولة في ازدهارها الاقتصادي حالة «لم ير أهل المغرب أياماً قط مثلها»⁽³⁾.

والمتمصفح لكتاب الاستبصار في عجائب الأمصار الذي كتب في هذه الفترة يلمح التوسع الزراعي في كثرة المحصولات وتنوعها⁽⁴⁾. ولا ريب في أن توسع أراضي الدولة وتنوع مناخها له فضل في ذلك كبير، ولكن الفضل الأكبر يعود إلى سياسة الدولة نفسها. فالخلفاء غرسوا كثيراً من البساتين⁽⁵⁾، وحنوا الناس على التوسع في الزراعة، وأشركوا الجند في الحصاد في بعض الأوقات⁽⁶⁾، وعملوا على حماية الزراعة من الثورات والفتن⁽⁷⁾.

وتجلت النهضة الصناعية⁽⁸⁾ في استغلال المعادن⁽⁹⁾، وصناعة السفن التي انتشرت دورها في السواحل⁽¹⁰⁾، وإنتاج السلاح، والمصنوعات الزراعية وخاصة المنسوجات والسكر والزيت⁽¹¹⁾.

(1) المن بالإمامة ص 286، البيان المغرب ج 3 ص 65، 138.

(2) روض القرطاس ص 143.

(3) المعجب ص 256.

(4) الاستبصار ص 113، 116، 117، 119، 147، 150، 153، 210. إلخ.

(5) أنظر عن بحائر مكتاسة ومراكش الاستبصار ص 187، 210، 211.

(6) رسائل موحدية ص 215، البيان المغرب ج 3 ص 225.

(7) المصدران ذاتهما ص 184 - 185، ج 3 ص 152 - 153.

(8) راجع عن النهضة الصناعية ما أورده محمد المنوني في كتابه العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ص 253 - 270.

(9) عن المعادن في هذه الفترة أنظر:

المعجب ص 362 - 363.

الاستبصار ص 181، 212.

(10) الاستبصار ص 120، 130، الاستقصا ج 2 ص 143.

(11) أنظر الاستبصار ص 113، 118، 154، 170، 173، 211-212.

ويافق هذه النهضة الزراعية والصناعية اتساع في التجارة الداخلية والخارجية فقد تاجروا مع المشرق العربي وبلاد السودان وأوروبا وعقدوا الاتفاقات التجارية⁽¹⁾.

ازدهار العمران:

من سمات عصر الموحدين في طور ازدهاره العمران الواسع. فقد أصلحوا الطرق ومدوا الجسور، وأقاموا مدناً جديدة، وأصلحوا أخرى قديمة، وشيدوا المساجد والمدارس والمستشفيات⁽²⁾. ولعل أبرز معالم النهضة العمرانية في هذه الفترة تتجلى في عمليات جلب المياه للمدن أو المؤسسات أو المزارع⁽³⁾. وفي الفنون الجميلة كالتزويق وعمل الفسيفساء⁽⁴⁾، والحصون والمنارات.

النهضة العلمية:

إن ازدهار المعارف وتنوعها من سمات العصر الموحيدي البارزة⁽⁵⁾، فقد «استوت الشخصية العلمية للغرب الإسلامي في صورتها التامة»⁽⁶⁾ بفضل من طابع الدولة العقائدي وتشجيع الخلفاء والسادات بني عبد المؤمن: بما أجزلوا من عطاء لأهل الفكر والأدب، وما أسسوا من مدارس وما شيدوا من مساجد، وما

Julien; v. 2, pp. 122 — 124.

(1) أنظر

المغرب عبر التاريخ ج 1 ص 316 - 317.

(2) نكتفي هنا بالإشارة لهذه المظاهر وسنفصلها في الفصول القادمة.

(3) الاستبصار ص 137 - 138، 140، 180 - 181، 209، 260.

(4) محمد المنوني: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ص 267 وما بعدها.

(5) راجع عن الحياة الفكرية: الأدب الأندلسي ج 1 ص 79 - 84، النبوغ المغربي في الأدب

المغربي ج 1 ص 110 - 171، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ص 21 - 234،

محمد بن شريفة: أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي ص 24 - 28 فصفحاته رغم

قلتها فقد أحاط المؤلف بالموضوع في شمول ودقة وخاصة قد اعتمد كثيراً على معلومات

مخطوط الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي، وانظر ما أورده بالنشأ من مقاطع في

كتابه تاريخ الفكر الأندلسي.

(6) ابن شريفة: أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي ص 24.

نظموا من خزائن للكتب، وما وفروا من جو من الحرية أرحب من الجو الذي وفره المرابطون، فحدوا من شوكة الفقهاء المالكيين.

هذا بالإضافة لما للمنافسة بين مشرق الإسلام ومغرب، والعدوتين الأندلسية والمغربية من أثر في إثراء الحياة الفكرية والأدبية، فغذتها بروح وثابة كان لها الفضل في تدوين كثير من المؤلفات. ولكل هذه العوامل تشعبت فنون المعرفة وكثر العلماء في كل فن.

لقد نادى الموحدون بالاجتهاد والرجوع إلى الكتاب والسنة، فزاد اهتمام الناس بالقرآن وعلومه، والحديث وروايته. فظهر مفسرون عظام كأحمد بن مسعود القرطبي (ت 601 / 1204)، وأبي الحجاج يوسف بن عمران المزدغي (ت 655 / 1257)، وأبي الربيع الكلاعي (ت 632 / 1236)، ومحدثون كبار كابني دحية أبي الخطاب (ت 633 / 1236) وأبي عمر (ت 634 / 1237)، وابن القطان الفاسي (ت 628 / 1231). وكثرت العناية بدراسة أصول الفقه والكلام وبرز فيهما أبو عمر عثمان بن عبد الله بن عيسى السلالجي (ت 574 / 1178) وأبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الفندلاوي (ت 596 / 1200).

ونالت علوم العربية وآدابها حظاً عظيماً وللدلالة على ذلك يكفي أن نذكر قضاء القرطبي (ت 592 / 1196)، وابن هشام اللخمي الإشبيلي (ت 570 / 1175)، وخروف (ت 602 / 1212)، وأبا موسى الجزولي (ت 607 / 1210). ونفقت سوق الأدب من شعر ونثر لحاجة الدولة إلى ناطقين باسمها، وكتاب في دواوينها، هذا عدا ما للرفاه المادي من أثر في ازدهار الأدب وتنوع أغراضه. وإذا أخذنا الشعر مثلاً، مصداقاً لقولنا، نجده قد تعددت ضروبه، وكثرت أغراضه، وبرز أعلام في كل فن: كابن حزمون في الهجاء، وابن سهل (ت 649 / 1251) في المجون، وابن قسوم الإشبيلي (ت 639 / 1242) وأبي زيد الفازازي (ت 627 / 1230)، في الزهد، وابن عربي (ت 638 / 1240) وأبي الحسن الششتري (ت 668 / 1270) في الشعر الصوفي، وأبي العباس الجراوي (ت 609 / 1212) وابن حبوس (ت 570 / 1175) وابن المنخل (ت 560 / 1165) في المدح.

وبلغ المغرب الإسلامي في علوم التاريخ والجغرافيا والرحلات والتصوف والفلسفة والطب شأواً لم يبلغه من قبل. ولهذه الحقبة انتمى ابن صاحب الصلاة (ت 594 / 1198) وعبد الواحد المراكشي (ت 621 / 1224) والشريف الإدريسي (ت 562 / 1166) وصاحب كتاب الاستبصار (ت السادس / الثاني عشر)، وابن جبير (ت 614 / 1217) وابن سعيد المغربي (ت 685 / 1286) وشب في أحضانها ابن الأبار (ت 658 / 1260) وابن عذاري المراكشي، وابن عبد الملك المراكشي، وابن الزبير، ونبغ فيها عبد الملك بن زهر (ت 557 / 1162)، وأبو بكر بن طفيل (ت 581 / 1185)، وابن رشد (ت 595 / 1198) وابن ميمون (ت 600 / 1204)، وابن البيطار (ت 645 / 1248)، وقد سبق أن أشرنا إلى ابن عربي والششتري في أعلام الشعر، وهما من أشهر أعلام التصوف في هذه الفترة، هذا بالإضافة لابن حرزهم (ت 559 / 1164) وابن سبعين (ت 669 / 1270). وغيرهم كثير.

ولم يكن حظ النساء من هذه الحياة الفكرية بقليل، فقد اشتركن في ضروبها المختلفة بقدر غير يسير⁽¹⁾.

طور الانحلال والسقوط:

مع مطلع القرن السابع / الثالث عشر دخلت الدولة في دور الانحلال. وتصور الروايات وفاة يوسف المستنصر (ت 620 / 1223) «آخر ضخامة» الدولة الموحدية لما أعقبها من نزاع على الخلافة بين أفراد الأسرة المؤمنية عصف بدولتهم⁽²⁾، ونقطة بداية الانحدار من القمة إلى السفح، فيما أرجح، هي أواخر فترة الخليفة الناصر رابع خلفاء الموحدين ولقد أثبت فشله في إدارة الدولة المتزامية الأطراف بمركزية متحكممة يوم عين والياً على إفريقية بسلطات استثنائية

(1) راجع عنهن التبوغ المغربي ج 1 ص 144، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ص 29، 33 - 35.

(2) المعجب ص 329، الحلل الموشية ص 135، محمد المنوني «الإمبراطورية الموحدية في دور الانحلال»، دعوة الحق (دجنبر 1962) ص 57.

في عام 603 / 1207⁽¹⁾. وأعقب ذلك فشله الكبير في الوقوف أمام النصارى في إسبانيا يوم العقاب (609 / 1212) التي كان فيها هلاك آندلس ولم تقل بعدها دولة الموحدين العشرة⁽²⁾. وختم حياته بتولية صبي غر فتغلب عليه أشياخ الموحدين⁽³⁾. وبوفاته توالى مظاهر الانحلال وسنشير لها في إيجاز وترك للفصول التالية من الرسالة الكشف عن تفاصيلها.

إن نزاع السادة بني عبد المؤمن على الأمر أتاح فرصة لمراكز القوة للتنفذ في شئون الدولة، لا سيما أشياخ الموحدين. فتسلط الأشياخ، وسيطر الوزراء، واستبدت الولاة. فضعفت الإدارة، واختل الجيش، واندثر الأسطول. وبالنتيجة كثرت الثورات، وضعف الخلفاء عن التصدي لها، فضلاً عن مجابهة القوى الخارجية، بل واستعانوا بالنصارى في سبيل القضاء عليها⁽⁴⁾. وانهارت الأوضاع الاقتصادية فتوقفت الحراثة⁽⁵⁾ وحركة العمران وأصاب الدمار ما شيد في دور الازدهار⁽⁶⁾. وذبلت الحياة الفكرية وانتقل الأدباء والشعراء والعلماء إلى تونس حيث وفر الحفصيون جواً من الاستقرار. وتقلصت أراضي الدولة وكانت آندلس السباقة للانفصال، فقام أبو عبد الله محمد بن هود بمرسية (625 / 1228) وحكم تحت شعار العباسيين تقريباً إلى العامة⁽⁷⁾. ولما نكث موحداً مراكش ببيعة المأمون، واضطر لمغادرة آندلس «خلا الجو لابن هود وانتهاز النصارى الفرصة»⁽⁸⁾، فسيطر ابن هود على معظم الجزيرة التي قام كل بلد فيها على من

- (1) البيان المغرب ج 3 ص 225، الرحلة ص 362، العبر ج 6 ص 583، الإحاطة ج 1 ص 320، الزركشي: تاريخ الدولتين ص 18، المؤنس ص 131.
- (2) البيان المغرب ج 3 ص 241، روض القرطاس ص 159.
- (3) البيان المغرب ج 3 ص 243.
- (4) البيان المغرب ج 3 ص 264، روض القرطاس ص 167، الإحاطة ج 1 ص 419.
- (5) الذخيرة السنية ص 35.
- (6) روض القرطاس ص 29، الذخيرة السنية ص 66.
- (7) البيان المغرب ج 3 ص 225 - 228، روض القرطاس ص 182، اللوحة البدرية ص 31.
- (8) الإحاطة ج 1 ص 430.

به من الموحدين، ودخلت آندلس في عهد طوائف ثالث، ولم تخضع مناطقها ثانية لسلطة مراكش إلا اسمياً لما بايع بنو الأحمر الرشيد لفترة قصيرة⁽¹⁾.

ويسر انقلاب المأمون على مبادئ الدولة الموحدية، استقلال الحفصيين بإفريقية (627 / 1230)⁽²⁾، وفشلت آخر محاولة لاستردادها في عهد السعيد (646 / 1248)⁽³⁾، وتكرس انفصالها يوم أعلن أبو عبد الله الحفصي نفسه خليفة (647 / 1249)⁽⁴⁾، ونازع موحد مراكش السيادة على أكثر مناطق الدولة.

وبانفصال آندلس واستقلال إفريقية لم يبق لخلفاء مراكش سوى المغرب الأقصى الذي لم يعد لهم نفوذ على بوايه⁽⁵⁾. فقد استبد بها عرب الخلط وسفيان والمعقل ثم بنو مرين. وعلى الرغم من الجهود التي بذلها الرشيد، لم تحافظ الدولة على هيبتها، أو تبسط سلطتها إلا لوقت قصير⁽⁶⁾. وبوفاته استبدت الولاة بولاياتهم وبايعت كثير من مدن المغرب الحفصيين⁽⁷⁾. وبدأ نفوذ بني مرين يعظم فهزموا جيوش الموحدين⁽⁸⁾، وحدوا من تعدي العرب على الناس، فعظموا في نفوس أهل المغرب⁽⁹⁾.

فما جاءت أيام المرتضى إلا وقد سيطروا على أغلب مناطق المغرب،

- (1) البيان المغرب ج 3 ص 342، العبر ج 6 ص 537.
- (2) البيان المغرب ج 3 ص 274-276، العبر ج 6 ص 594، الإحاطة ج 1 ص 320-321.
- (3) البيان المغرب ج 3 ص 385-388، روض القرطاس ص 173، العبر ج 6 ص 541.
- (4) البيان المغرب ج 3 ص 398، الإحاطة ج 1 ص 322، تاريخ الدولتين ص 32.
- (5) محمد المنوني «الإمبراطورية الموحدية في دور الانحلال» دعوة الحق (دجنبر 1962) ص 57.
- (6) راجع البيان المغرب ج 3 ص 335، 337، 340، 343، 356، روض القرطاس ص 171، العبر ج 6 ص 537.
- (7) أنظر البيان المغرب ج 3 ص 360 - 362، 373، العبر ج 6 ص 614، 617، 619.
- (8) موطنهم زاب إفريقية إلى سجلماسة ودخلوا المغرب بعد موقعة العقاب (روض القرطاس 181، 187) عن هزائمهم للموحدين أنظر البيان ج 3 ص 244-247 والعبر ج 6 ص 524.
- (9) البيان المغرب ج 3 ص 350.

وهددوا مراكش نفسها⁽¹⁾، ووالوا هزاتهم على الموحدين حتى قضوا على آخر الخلفاء الوائق أبي دبوس منسلخ 667 / 1269 ودخلوا مراكش ووضعوا نهاية الموحدين بالمغرب الأقصى⁽²⁾.

وكل هذه المظاهر الدالة على الانحلال والضعف لا تفسر السبب فيه. وعندي أن الروح التي أقامت الدعوة وأسست الدولة أصابها ذبول وضمور وفي هذه الظاهرة يكمن سر الانحلال والسقوط. والتنظيمات والنظم الموحدية خير ما يصور الروح الموحدية قوة وضعفاً ومن هنا برزت لنا أهمية دراستها.

الفصل الثاني التنظيم الحزبي

(1) البيان المغرب ج 3 ص 392 - 394، العبر ج 6 ص 542.

(2) روض القرطاس ص 175، العبر ج 6 ص 551.

هذا مقال لعماد الدين الأندلسي
في "الآيات" ١١ و١٢، السنة ١٩٧٥
على ص ٨٤-٨٦، ويطهران ١٩٧٥
المجلد ٥٥

كانت تنظيمات الموحدين الحزبية تكمن وراء نظمهم الإدارية، وتشكيلاتهم العسكرية، وخططهم الدينية، وأوضاعهم المالية. ومنذ البداية ذابت تنظيمات الحزب في نظم الدولة وغدت جزءاً لا ينفصم عنها، ولا يستطيع الدارس لهذه أن يتجاهل أثر تلك، ولهذا تصبح دراسة تنظيمات الموحدين الحزبية جزءاً ضرورياً من دراسة نظم دولتهم.

مفهوم الحزب:

إن التنظيم الحزبي سمة بارزة للحضارة المعاصرة، وقد تدفع النظرة المستعجلة بصاحبها إلى الظن بأن في هذا إطلاق مفاهيم حديثة على أوضاع ماضية، ونظرة إلى التاريخ من خلال الحاضر، والأمر على غير ذلك. إن كلمة «حزب» لم تكن غريبة على حسن الموحدين الديني، إذ أن القرآن يصف المجموعات المتجانسية عقائدياً أو مصلحياً بالأحزاب، ويسمي المؤمنين «حزب الله»، والكافرين «حزب الشيطان»⁽¹⁾، وقد اعتقد الموحدون ألا أحد على وجه الأرض آمن إيمانهم⁽²⁾، ولا عجب - بعد ذلك - إن ظنوا في أنفسهم أنهم حزب الله الغالب. وقد نعتوا أنفسهم بـ «حزب التوحيد» واستعملوا اللفظة في رسائلهم الرسمية في أيام الخلفاء الأول⁽³⁾.

(1) سورة 30 آية 22، سورة 58 آية 19، 22، سورة 33 آية 20، 22.

(2) المعجزة 188.

(3) كان ابن تومرت يطلق على أتباعه كلمة «طائفة» وعلى مخالفيه في الرأي «طوائف» أنظر أعز ما يطلب ص 259 وما بعدها، 267 وما بعدها.

أولية التنظيمات:

اضطراب المادة:

تواجه الدارس لتنظيمات الموحدين الحزبية صعوبات جمة إذ أن الروايات مختلفة والمادة مضطربة، ويصعب الفصل فيها برأي قاطع. ويرجع الغموض فيها إلى سببين:

أولاً: فامت ثورة الموحدين بعد عام واحد من الإعداد المنظم، ولم تكون تنظيماتهم الحزبية إلا بعد الثورة، وتبلورت تلك التنظيمات خلال مسيرة الموحدين نحو النصر. وفي بداية الأمر تولت تلك التنظيمات وظائف النظم الحكومية. ولما قامت الدولة وتولت نظمها الأعباء وأرخ الناس للفترة الأولى خلطوا بين التنظيمات النظم.

ثانياً: إن المادة عن النظم والتنظيمات في تاريخنا الإسلامي - بوجه عام - قليلة وغامضة فكيف إن جاءت عن رواة بعدوا عن الأحداث مكاناً وزماناً. وأكثر المعلومات عن تنظيمات الموحدين الحزبية جاءت عن أحد ثلاثة رجال، إما عن رجل كتب بعد الأحداث الأولى بزمان، أو عن رجل صنف من ذاكرته، وخارج أرض الأحداث، أو عن رجل جمع بين الأمرين معاً. فمن النوع الأول صاحب كتاب الأنساب، وابن صاحب الصلاة، ومن الصنف الثاني اليسع، ومن النوع الثالث عبد الواحد الماركشي.

وما يذكره الرواة عن أصناف الموحدين خير ما يصور اضطراب المادة عن التنظيمات الحزبية. إن الأصناف عند اليسع⁽¹⁾ هي: العشرة وأهل خمسين وأهل سبعين والطلبة والحفاظ وأهل الدار وهرغة وأهل تينملل وجدميوة وجنفيسة

= وأما عن استعمال كلمة «حزب» أنظر رسائل موحدية ص 163، البيان المغرب ج 3 ص 151، 285، 287.

(1) وردت الرواية في نظم الجمان ص 28، الحل ص 89.

وهنتاة وأهل القبائل والجند والغرات⁽¹⁾. وعند صاحب كتاب الأنساب⁽²⁾ هي: أهل الدار وأهل الجماعة وأهل الخمسين وهرغة وأهل تينملل وهنتاة وكدميوة وكنفيسة وكومية والقبائل وهسكورة وصنهاجة وعبيد المخزن والمحتسبون والسكاكون والمؤذنون والغزات والحفاظ وأهل الحزب. وليس هناك رواية شبيهة بهاتين الروايتين في شمولهما غير أنهما تخلطان بين التنظيمات الحزبية والنظم الإدارية والعسكرية والخطط الدينية، ويبرز الخلط بوضوح عند صاحب كتاب الأنساب. ولهذا نميل إلى القول بأن الروايتين تمثلان مرحلتين مختلفتين وتؤكد هذا الرأي ثلاثة أمور:

أولاً: الروايتان لا تتفقان في الأصناف أو عددها أو ترتيبها.

ثانياً: يهمل صاحب كتاب الأنساب الطلبة ويذكر الحفاظ، والحفاظ استحدثوا بأخرة، ويذكر كومية ويهملها اليسع، وكومية أضيفت إلى قبائل الموحدين بعد قيام الدولة واستقرارها.

ثالثاً: جاء ترتيب الأصناف في كليتهما حسب تواليهم في التمييز (العرض)⁽³⁾.

والتنظيمات التي يمكن أن تعتبر تنظيمات حزبية هي: العشرة أو أهل الجماعة وأهل خمسين وأهل سبعين والسبعة⁽⁴⁾ والطلبة والحفاظ والكافة.

تاريخ تكوين التنظيمات:

تجمع الروايات على أن قيام هذه التنظيمات تمّ بعد بيعة ابن تومرت

(1) هكذا قرأها محقق نظم الجمان وقرأها محقق الحلل الموشية «الغزات» وسندي رأينا في هذا الأمر عند شرح النظام العسكري، وأسقطت رواية الحلل الموشية «أهل القبائل».

(2) وردت في أخبار المهدي ص 29 - 48.

(3) نظم الجمان ص 29، أما صاحب كتاب الأنساب فيؤكد ذلك مع ذكر كل صنف.

(4) لا يذكر هذا الصنف إلا ابن صاحب الصلاة وقد أورده ابن القطان نقلاً عنه (نظم الجمان ص 32).

بالمهدية⁽¹⁾. ويحدد اليسع تاريخ ذلك بالبيعة نفسها، إذ كون ابن تومرت من العشرة الأول أهل العشرة، ومن الخمسين الذين يتبعونهم أهل خمسين، ومن السبعين الذين يلونهم أهل سبعين⁽²⁾. وتجنب عبد الواحد المراكشي وصاحب كتاب الأنساب تحديد زمن معين⁽³⁾.

إن المقارنة بين العشرة الأول الذين بايعوا ابن تومرت بالمهدية - كما أوردهم البيهقي الذي اشترك معهم فيها - مع العشرة أهل الجماعة في شتى الروايات لا تكشف عن اشتراك في الأسماء إلا في خمسة أشخاص⁽⁴⁾، مما يدل على بطلان زعم اليسع. وطبيعة تكوين أهل خمسين لا تسمح بقبول رأيه. وقد أصاب صاحب كتاب الأنساب كبد الحقيقة عندما قال: «فلما أراد الله تعالى تعيين أهل الخمسين كان الإمام المهدي رضه ينظر في الموحدين ويلتقطهم منهم رجلاً بعد رجل»⁽⁵⁾. وإذا صح الاختيار في أهل خمسين فهو في أهل الجماعة ألزم، لأنهم أهل ثقته ومشورته. والراجح أن تكوين الهيئات التنظيمية تم على مراحل، وعلى ذلك شواهد غير يسيرة.

لقد تميز العشرة أهل الجماعة بالعلم وبالقدرة القيادية وبالبدل وبالتضحية، سلاطنتهم الذي يؤكد أن اختيارهم كان نتيجة فحص كبير وتدقيق تام، وكلهم ممن صحب ابن تومرت قبل إعلان المهدية⁽⁶⁾، إلا أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاتي

(1) المعجب ص 188، نظم الجمان ص 28، الحلل الموشية ص 88، روض القرطاس ص 114.

(2) نظم الجمان ص 76، 80، الحلل الموشية ص 88، وقد تبنى علام قول اليسع ونسبه إلى ابن القطان، أنظر الدعوة الموحدية بالمغرب ص 169.

(3) ويبدو أن أشباح أراد تجنب القضية مثلها فاكتمى بمثل إشارة المراكشي مع أنه عرف رواية اليسع وما أورده عن أصناف الموحدية يدل على ذلك أنظر تاريخ الأندلس ص 191.

(4) قابل أخبار المهدي ص 73 بالملحق الثاني.

(5) أخبار المهدي ص 35 - 36.

(6) المعجب ص 188، الكامل ج 10 ص 576، روض القرطاس ص 113.

الذي ألحق بأهل الجماعة بعد «توحيد» قبيلته هنتاة⁽¹⁾، وربما كان تعيينه إرضاء لقبيلته - وقد كان أحد زعمائها -، وهنتاة وافرة العدد جملة الشعوب ولما وحدث ضاعف المرابطون حملاتهم على الموحدية⁽²⁾، هذا فضلاً عما تميز به من إمكانيات عسكرية برزت في تأسيس الدولة.

ولم يكن بين أهل الجماعة أحد من هرغة - قبيل المهدي وأول من استجاب لدعوته ودخل في أمره ونهض إلى نصرته، فلو تم التكوين بالصورة المعارضة التي يزعمها اليسع لكان بين العشرة أهل الجماعة على الأقل واحد من هرغة.

والراجح أن ابن تومرت كان يستعد لإعلان مهديته، ويعمل لتنظيم أتباعه، فكان ينتقي صفوة الرجال ويستخلصهم لنفسه، ولما أعلن مهديته كان أهل الجماعة ماثلين أمامه، فأوكل إليهم مهامهم مع سبق إعداد وتهيئة، فكان إعلان المهدية وكان تكوين أهل الجماعة.

ويبدو أن تكوين أهل خمسين تم على مراحل، وإشارة كتاب الأنساب الأنفة الذكر قاطعة في الدلالة على ذلك. ومما يدعم هذا الرأي أن أهل خمسين يمثلون قبائل الموحدية⁽³⁾ الست التي انبنى عليها الأمر. وقد كان المهدي يثبت أهل خاصته الذين لم يكونوا من هذه القبائل في قبيلته هرغة⁽⁴⁾. ولم «توحد» قبائل الموحدية في وقت واحد. ولقد دخلت هرغة وكثيرة وقبائل أهل تينملل وهنتاة الدعوة الموحدية في فترة إيجيليز⁽⁵⁾، وحاربت في صف المهدي

(1) نظم الجمان ص 87، Huici; v.1 p. 103 وقد وهم ابن خلدون وذكر أنه دخل في الأمر قبل إعلان المهدية وعده فيمن بايع ساعة إعلانها العبر ج 6 ص 468، 470.

(2) عن هذه الحملات راجع نظم الجمان ص 86 - 89.

(3) المعجب ص 188.

(4) أخبار المهدي ص 28.

(5) أنظر أعلاه ص 40.

طوال حياته⁽¹⁾. بينما كانت هسكورة محاربة له شديدة عليه⁽²⁾، ولم توحد إلا في أيام عبد المؤمن⁽³⁾. وانضمت صنهاجة الجبل عام 529 / 1135⁽⁴⁾ والغالب أن صاحب الحلل الموشية يخطئ عندما يجعل قبائل الموحدون الست تباع المهدية فور إعلان مهديته⁽⁵⁾.

إن دخول القبائل في أمر المهدية بعد إعلان مهديته في تفاوت زمني يرجح القول بأن أهل خمسين كانوا يتكاملون عقب انضمام كل قبيلة، وربما مثلت بعض القبائل بأشخاص قبل انضمام قبيلتهم، فبدأت الهيئة في إيجيليز وتبلور دورها في تينمل⁽⁶⁾.

وعلى ضوء ما سلف يمكن تضعيف رواية ابن خلدون بشأن تكوين أهل خمسين، فهو يقول: «ولما تم له (أي المهدية) خمسون من أصحابه سماهم أيت خمسين»⁽⁷⁾. وابن خلدون شديد الغموض فيما يتعلق بالتنظيم والنظم الموحدية، وروايته هذه لا تتفق مع الروايات المعاصرة ولا تستقيم مع طبيعة الهيئة التمثيلية.

وأغلب الظن أن تنظيم الطلبة سبق تكوين الهيئتين السابقتين، فالمراكشي يروي لنا أن ابن تومرت - قبل إعلان مهديته - أرسل رجالاً «ممن استصلح عقولهم» لدعوة القبائل إلى آرائه⁽⁸⁾. ويبدو أن إيفاد الطلبة إلى قبائلهم كان عملية مستمرة خاصة بعد إعلان المهديّة⁽⁹⁾.

(1) أخبار المهدي ص 75، نظم الجمان ص 86 وما بعدها.

(2) أخبار المهدي ص 76، المعبر ج 6 ص 470.

(3) نظم الجمان ص 210.

(4) نظم الجمان ص 210، بينما يذكره ابن الأثير ويتابعه النويري سنة 528 الكامل ج 10 ص 578، نهاية الأرب ص 196.

(5) الحلل الموشية ص 88 وربما كان ذلك بوحى من رواية اليسع.

(6) يجعل هوسي تكوين أهل خمسين في تينمل Huici; V.I, p. 103

(7) المعبر ج 6 ص 470 وانظر مناقشة هويكنز (Hopkins) لهذا الرأي في Hopkins: P. 89

(8) المعجب ص 187.

(9) أخبار المهدي ص 132، نظم الجمان ص 84 - 85، 93.

من هذه المعلومات عن تاريخ تكوين التنظيمات الحزبية في حياة المهدي، ومن أوقات ظهورها المختلفة، وتدرج نشأتها، يصح الاستنتاج بأن هذه التنظيمات قامت وفق تجدد الظروف وتغيرها.

التنظيمات ودورها:

أهل الجماعة:

تسمى هذه الهيئة في الروايات بـ «العشرة» أو بـ «أهل الجماعة»⁽¹⁾، غير أن كتاب الأنساب لم يطلق عليها إلا «أهل الجماعة»⁽²⁾، فهل «العشرة» تعني الاسم أم العدد؟ إن الروايات تختلف في العدد والأشخاص والترتيب⁽³⁾، وأغلب الروايات تذكر عشرة أسماء، بينما تذكر رواية اليسع عند ابن القطان سبعة رجال فقط، وتذكر رواية كتاب الأنساب اثني عشر شخصاً. ولعل اسم الهيئة الأول كان هو «أهل الجماعة»، وربما كان عدد أعضائها في بادئ الأمر عشرة أشخاص تأسيساً بالعشرة المبشرين بالجنة، ولا سيما وأن ابن تومرت كان يتأسى خطوات النبي ﷺ⁽⁴⁾، فاكتمبت الهيئة من عددها اسماً آخر مع اسمها الأول.

والعدد لم يظل ثابتاً، فقد أسقط المهدي الفقيه الإفريقي من أهل الجماعة ثم قتله لما شك في عصمة الإمام وأنكر مذبحة هزميرة⁽⁵⁾. وفي موقعه البحيرة - آخر غزوة في حياة المهدي - استشهد نصف أهل الجماعة⁽⁶⁾، ولا يعلم هل أحل

(1) المعجب ص 188، نظم الجمان ص 28، 30، 74، 76، الحلل الموشية ص 88، 89، روض القرطاس ص 113.

(2) أخبار المهدي ص 32.

(3) أنظر الملحق الثاني.

(4) مثل البيعة تحت الشجرة والهجرة والمغازي.

(5) نظم الجمان ص 97، البيان المغرب (ط. دار الثقافة) ج 4 ص 69، ووهم عبد الله علي علام فظنه أبا بكر الصنهاجي البيذق (الدعوة الموحدية بالمغرب ص 167) بينما عاش البيذق إلى منتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

(6) نظم الجمان ص 122.

المهدي محلهم آخرين أم لا، ولكن وجود روايات فردية فيما يتعلق بأسماء عدد من أعضاء هيئة أهل الجماعة قد يعطي فرصة للافتراض بأن المهدي كان يفعل ذلك. وعليه فإن العدد يختلف من ظرف إلى آخر.

ومن المعلومات المتوفرة عن هذه الهيئة يمكن استخراج أسماء من اشترك فيها، ولكن لا يمكن القول بأن اشتراكهم جميعاً كان في وقت واحد. لقد كان أعضاء أهل الجماعة عبد المؤمن بن علي الكومي خليفة ابن تومرت فيما بعد، وأبو حفص عمر بن علي الصنهاجي، وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي جد حفصبي تونس، وأبو يحيى أبو بكر يكيك - وهؤلاء تجمع عليهم الروايات، وأبو محمد عبد الله محسن الوانشرشي - ولا يغفل ذكره إلا المراكشي، وليس ذلك بمستغرب فالمراكشي قد أهمل ذكر التمييز الذي قام به البشير برأي ابن تومرت، وأبو الربيع سليمان بن مخلوف الحضرمي - وقد يكون هو الذي جاء في رواية الحلل الموشية باسم اسماعيل بن مخلوف وإذا صح الافتراض لا تهمل ذكره إلا رواية اليسع عند ابن القطان -، وأبو إبراهيم إسماعيل بن يسلاي الهزرجي - ولم تغفل ذكره إلا رواية اليسع عند ابن القطان -، وأبو عمران موسى ابن تمارا الجدميوي، وأبو عبد الله محمد بن سليمان من أهل أنسا، وعبد الله ابن يعلى الزناتي التازي المعروف بابن ملوية.

أما بقية الأسماء فقد انفردت بها رواية دون الأخرى، وقد جاء بعضها في غير هيئة من تنظيمات الموحدين، فيذكر صاحب كتاب الأنساب أبا موسى عيسى ابن موسى الصودي ومحمد عبد العزيز الفيغائي، وكلاهما قد ذكر في أهل دار المهدي⁽¹⁾. ويذكر المراكشي عبد الواحد الشرقي ويؤكد ذلك بقوله: «على الصحيح، وأبا محمد وسنار» والشخصان تصنفهما روايات أخرى بين أهل دار المهدي⁽²⁾.

(1) أخبار المهدي ص 34.

(2) أنظر أخبار المهدي ص 29، نظم الجمان ص 33.

إن ذكر بعض أهل الدار بين أهل الجماعة في بعض الروايات يدعو إلى القول بأن أشخاصاً من أهل الدار كانوا يجتمعون مع أهل الجماعة أو يقومون ببعض اختصاصاتهم في بعض الأوقات، الأمر الذي يكشف عن مرونة التنظيم وتداخل أجهزته في حالات معينة لا تسعف الروايات على توضيحها.

إن ترتيب الرواة لأسماء أهل الجماعة لا يساعد في توضيح أهميتهم، ويبدو أن الترتيب تأثر بأحداث متأخرة، إذ يجعل الرواة عبد المؤمن الأول في العشرة، ولا يستثنى من ذلك إلا اليسع والمراكشي وقد كتبنا بالشرق: إن أول أهل الجماعة في رواية اليسع، هو البشير، وفي رواية المراكشي هو عبد الواحد الشرقي. ورواية اليسع تمثل الواقع أكثر من غيرها، ولا سيما وإنها قد جاءت عن عبد المؤمن نفسه. ولقد كان البشير قائد جيوش الموحدين ولا تعرف غزوة قادها عبد المؤمن وكان البشير جندياً فيها⁽¹⁾. وقد خصه المهدي بتمييز المؤمنين عن المنافقين من بين الموحدين⁽²⁾، وأغلب الظن أن البشير كان سب خلف المهدي لولا أن عاجلته منيته يوم البحيرة فسبق المهدي إلى الدار الأخرى⁽³⁾.

ويمكن تحديد وظيفة هذه الهيئة بنوع من الدقة. لقد كان أهل الجماعة بمثابة الوزراء للمهدي⁽⁴⁾، فهم أهل ثقته ومشورته في الأمور العظام⁽⁵⁾، وقد تولوا تنفيذ القرارات. فقد تولى البشير في أغلب الأحوال وعبد المؤمن وعمر أصناج وموسى بن تمارا - في بعض الأحيان - القيادة العسكرية⁽⁶⁾، وسليمان الحضرمي

(1) راجع أخبار قيادته الجيوش الموحدية في أخبار المهدي ص 78، الكامل ج 10 ص 576، 577، نظم الجمان ص 88، 115، الحلل الموشية ص 93، البيان المغرب ج 3 ص 75، نهاية الأرب ص 194، 195، وقد ذكر المراكشي وابن القطان في إحدى رواياته أن عبد المؤمن كان قائد غزوة البحيرة وهذا وهم (أنظر المعجب 198، نظم الجمان 118).

(2) أخبار المهدي ص 36، نظم الجمان ص 102 - 103.

(3) Huixi; v. 1, p. 101

(4) نظم الجمان ص 74.

(5) المصدر ذاته ص 81، الكامل ج 10 ص 576، الحلل الموشية ص 88.

(6) أخبار المهدي ص 75، نظم الجمان ص 117.